غياب العدل منبع التطرف

الشيخ الدكتور سلمان بن فهد العودة

نشر في كتاب

ظاهرة التطرف والعنف..

من مواجهة الآثار إلى دراسة الأسباب

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى محرم 1428هـ موافق يناير 2007م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان 1439 / مايو 2018

غياب العدل منبع التطرف

الدكتور سلمان بن فهد العودة (*)

المجتمعات لا يمكن أن تقوم على الظلم أبداً، والله تعالى ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة، لعل أفضل علاج للحيلولة دون التطرف: العدل وإعطاء ذوي الحقوق حقوقهم، سواء كانت الحقوق مالية أو شخصية أو سياسية...

التطرف من أكثر الألفاظ إلحاحاً على ألسن الكتاب والمثقفين والإعلاميين والساسة في هذا الوقت، خاصة بعد أحداث نيويورك وتداعياتها، وهي كلمة مولَّدة غير أصلية.

وعند ابن فارس: أن الطاء والراء والفاء أصلان؛ فالأول يدل على حد الشيء وطرفه، والثاني يدل على حركته فيه[1].

وتطرف الشيء صار طرفاً[2].

(*) باحث أكاديمي.. (السعودية).

(1) مقاييس اللغة، 90/2.

(2) لسان العرب .

والطرف الناحية والطائفةُ من الشيء[1].

ومن أقدم من ورد على لسانه لفظ التطرف ابن تيمية، رحمه الله، حيث يقول: «ثُمَّ إنَّهُ لِسَبَبِ تَطَرُّفِ هَؤُلاءِ ...»[2].

وقال في المسودة: «من الناس من لا يحكي إلى القولين المتطرفين دون الوسط»[3].

ومصطلح التطرف في عصرنا الحاضر أصبح فضفاضاً واسعاً، يدخل فيه ما قرب وما بعد، حيث إن المفهوم لمصطلح ما في أي لغة هو عبارة عن ظلال تلقيها عليه تجارب اجتماعية ومحكّات إنسانية وحوادث طويلة؛ تؤدي في النهاية إلى وظائف ومعارف مخصوصة لهذا المصطلح في محيط بيئته، سواء أقرها المجتمع أو لم يقرها.

ومتاهة المصطلحات سبب وطيد للتباعد في المواقف، وتحول الحوار إلى نوع من الصراخ في قوم لا يسمعون، إذ إن التطرف هو محاولة للتعريف بحسب الموقع الذي يشغله المرء.

فأنت إذا افترضت نفسك تعبيراً عن الوسط، الذي هو رمز الاعتدال والتوازن والفضيلة، وهو مقام يتفق الجميع على نشدانه وتطلبه، فالفضيلة

(1) مختار الصحاح.
(2) مجموع فتاوى ابن تيمية، 3/ 196.
(3) 209/1.

وسـط بـين رذيلتـين، كمـا كـان يقـول «أرسـطو» وهـو الحسـنة بـين السيئتـين وهـذا مـا قـرره علمـاء الإسـلام كـالغزالي وابـن تيمـية وابـن القيم وغيرهم، وهـو أحـد معـاني الأمـة الوسـط في القـرآن الكـريم يقـول سبحانه وتعـالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقـرة:143)، قـال ابـن عبـاس، رضـي الله عنهمـا: جعلكم أمةً عُدولاً؛

وقال علي، ﷺ: خير الناس هذا النمط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي؛

إذا افترضت نفسك ممثلاً لهذه القيمة الراقية «الوسطية» فأنت تحدد مواقع الآخرين تبعاً لـذلك، فهـذا يمـين، وهـذا يسـار، وذاك يمـين اليمـين، وذاك يسـار اليسار، وهذا متطرف، وهذا غير متطرف.

ولنـا أن نعتـبر هـذا امتـداداً للمبالغـة في رؤيـة «الـذات» وتقـدير قيمتهـا واعتبارها ميزاناً للحكم والتقدير، وربما محاولة لرسم منهج تفكير الآخرين دون ترك الخيار لهم.

إن مـن الأشـخاص مـن يوجـد في نسـيج تكـوينهم العقلـي والنفسـي مبـدأ التوازن والاعتدال، وهذه قيمة شريفة، ونعمة غالية، ولقد كان العلماء يجعلون الفضيلة العليا هي فضيلة العدالة التي تتمثل في التوافق والانسجام بين قوى النفس عن طريق العقل، فلا تبغي إحداها على الأخرى، فيكون ثمت توازن بين قانون العقل وحركة النفس.

وبإزاء هؤلاء جبل آخرون على نوع من الحدة المتمثلة في تفوق صفة من صفات النفس على غيرها، كصفة الغضب، أو صفة الشهوة، ويفتقد التوازن داخل نظام العقل وحركة النفس، فأحياناً يكون العقل ذا سلطة مستبدة على النفس، وأحياناً العكس، وفقدان التوازن هنا مؤهل لصنع أنظمة غير وسطية في مناهج التفكير والتربية، بل والعلم والمعرفة.

وهذا التكوين الفطري ذو علاقة وطيدة بنوع الاختيار العلمي والعملي الذي ينحو إليه المرء في غالب الأحيان، ما لم يقاومه ما هو أبلغ تأثيراً، وأعظم وقعاً.

ونتيجة لهذا فإنك تجد اختيارات الإنسان وآراءه، وأنماط سلوكه وحياته متجانسة ؛ لأنها تخرج من مشكاة واحدة.

ولحسن الحظ فإن غالب الناس هم في دائرة الوسط والعدل، من حيث نظام التعامل الحياتي في أصل تكوينهم.. ودائرة الوسط ليست صيغة واحدة، لكنها إطار عام يحتوي طبقات عريضة من الناس.

ويبقى أن هذه الوسطية الفطرية التي يتحلى بها أكثر الناس ليست سوى مؤهل بقبول الحق والتأثر به والتسليم له، فهي نوع استعداد لا يفيد ما لم تنطبع عليه آثار الهداية الربانية.

ولهذا جاء في الكتاب والسنة تشبيه الوحي بالمطر، وتشبيه النفس القابلة للهدى بالأرض الطيبة، وأخص من ذلك تشبيه القلب الخاشع

بالأرض الحية، والقلب الغافل بالأرض الميتة، قال الله جل شأنه: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (الحديد:16).

ثم عقب بقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الحديد:17).

قال ابن كثير في تفسيره: فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها...

وفي البخاري ومسلم وأحمد، من حديث أَبِي مُوسَى الأشعري، ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضاً، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**».

فيتحصل من هذا المعنى أن الاعتدال يقوم على ركنين:

الأول: الاتباع الصادق لما جاء عن الله ورسوله، وتحكيم الوحي في كل شاردة وواردة، وصغيرة وكبيرة.

الثاني: قابلية المحل لذلك، بكون المرء مستعداً لذلك في تكوينه وجبلته.

فالوحي هو النور، والمحل القابل لذلك هو كالمشكاة التي ينبعث منها النور، ولذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ (النور:35)، على أحد الوجوه في تفسير الآية الكريمة[1].

والوحي هو المطر، والمحل القابل هو الأرض الطيبة المستعدة، كما في النصوص الأخرى.

وبهذا يكون المعيار هو الوحي الرباني من الكتاب والسنة، والناطق بهذه الحجة هم أهل الاعتدال من حملة الشريعة في كل زمان ومكان، وهذا المعنى ظاهر في الحديث المرسل من طرق: « **يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُولُه، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين** »[2].

فهذا النص ومثله كثير، يكشف أن المهتدين بنور الكتاب والسنة من أهل العدل والإنصاف والتوسط هم الجادّة التي يرد إليها من نفر عنها.

وهكذا في سورة الفاتحة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ

(1) انظر ابن كثير، 290/3.

(2) انظر التمهيد، 59/1.

ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ .

فذكر الجادة الوسط المستقيمة، وذكر ما يخالفها ذات اليمين وذات الشمال من المغضوب عليهم والضالين، وفيه إشارة إلى أهمية قيام القدوة العملية الحياتية لهذه الوسطية وأن لا تكون قيمة نظرية فحسب.

والغلو بكل صوره وأشكاله هو الاستثناء الذي يعزز القاعدة ويؤكدها.

ولهذا حذر النبي ﷺ من الغلو، كما في حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «بمثل هؤلاء فارموا - يعني حصى الجمار- وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» [1].

(1) أخرجه النسائي، كتاب مناسك الحج .

أسباب التطرف

إن من أهم أسباب التطرف:

1- **التأزّم الفكري**، فالعالم الإسلامي يحتويه تياران على طرفي نقيض:

– **التيار الأول**: هو التيار العلماني، الذي يمارس تطرفاً واسعاً بإصراره على نقل التجربة الغربية بل على استنساخ المجتمعات الغربية في ديار الإسلام وبناء الحياة على أساس مادي غير مرتبط بالأصول الشرعية ولا حتى الموروثات الاجتماعية الفاضلة؛ فهي من وجهة نظره عوائق كبرى عن التقدم والحضارة والرقي.

– **التيار الثاني**: تيار مضاد فهو يعارض كل أشكال المدنية الحديثة، ويرى أنها تقطعه عن رب العالمين، فهي طريق للإفساد في الدين، ومن شأنها أن تجعل الإنسان وصولياً أنانياً يعيش لنفسه فقط.

وكلا الطرفين في ردات فعل مباينة للطرف الآخر، إضافة إلى فقدان لغة الحوار والتفكير الثاقب البناء.

2- **الجهل أو الخطأ في فهم المقاصد الشرعية** والأوامر الإلهية وتنزيل النصوص على غير مرادها.

3- **تدني المستوى الاقتصادي للدول والأفراد**، مما يحدث فجوة عميقة في النفوس، وها هو طوفان العولمة يجتاح العالم مولداً أزمات اقتصادية مما ولد عجزاً عن أي تعاون دولي جاد أو حسم للمشكلات الاقتصادية أو الاجتماعية.

4- عدم مصداقية الكثير من الحكومات والنظم السياسية الحاكمة فيما تدعيه في مُثل وقيم تناقضها في ممارساتها مع شعوبها.

5- تخلي كثير من البلاد الإسلامية عن تحكيم شرع الله عز وجل، ولعل أكثر نزعات التطرف ترفع شعار الحكم بما أنزل الله.

وهو شعار صادق في حد ذاته، لكن الشأن في تبعاته، ومن قبل قال الخوارج: «لا حكم إلا لله» فرد عليهم علي ﷺ بقولته المشهورة: «كلمة حق أُريد بها باطل».

إن غياب المرجعية الدينية في المجتمعات الإسلامية، وانحسار دور العلماء، وضعف الخطاب الديني جعل تلك المجتمعات تعيش فوضى ضاربة لا نهاية لها، وأسهم في غياب مفهوم الهوية:

هل نحن أمة عربية إسلامية ذات مرجعية شرعية ربانية تواكب العصر وتعيش مستجداته؟

أم نحن أمة غربية نعيش على ما يقدمه لنا (الآخر) من أفكار وأنماط حياة؟

هل نحن أمة واحدة ولو تعددت بلداننا وأوطاننا؟

أم نحن أمم شتى لا روابط بينها؟

كل شعب قام يبني نهضة   وأرى بنيانكم منقسما
في قديم الدهر كنتم أمة   لهف نفسي كيف صرتم أمما؟!

6- **التهتك المجتمعي** المتمثل في غياب دور الأسرة والمدرسة والمحاضن التربوية في كثير من النواحي، مما ينتج عنه الكثير من الأمراض النفسية والانحرافات العديدة.

وقد أكدت الكثير من الدراسات أن جنوح الشباب إلى التطرف يرجع إلى أسباب نفسية، ومن أهمها عدم إشباع الحاجات الضرورية، أو النمو المضطرب للذات، أو بسبب الحرمان من الوالدين وخاصة الأم، بل إن 78% من أسباب ظهور تلك المجموعات هو بديل لما يعانيه الفرد من الحرمان النفسي.

7- **وسائل الإعلام**، التي تضخ زخماً هائلاً من المواد الفاسدة، سواء الفضائيات أو الشبكة العنكبوتية أو المجلات والصحف وغيرها، وغياب الرؤية الإصلاحية البنائية لدى هذه الوسائل في حمى تنافسها على كسب قلب المشاهد وجيبه.

8- **عدم الفهم الصحيح للمعاني الدينية**، وتوجيهها في غير مسارها، كقضية الزهد وقضية الجهاد وقضية الولاء والبراء وغيرها.

ومثله الفهم الخاطئ لحقوق أهل الذمة وما لهم وما عليهم، وندرة أو قلة فرص العمل في كثير من الدول، مما يزج بالشباب في محاضن تربوية غير مؤهلة شرعياً أو علمياً.

سبل العلاج

إن التطرف الذي هو «تجاوز عدل الشرائع السماوية والفطر الآدمية» هو أزمة بحق، وتاريخ الحضارات كلها يكشف عن نماذج كثيرة لهذا التطرف، وتعد رسالة الإسلام الأنموذج الأول والأمثل لمعالجة هذا الانحراف، لكن مع هذا كله فلسنا هنا بصدد أن نعيش ردود أفعال ونتبادل مع الغرب والعالم الأوصاف، إن هذه معركة ربما تكون غير ملحة، وقد لا تصنع شيئاً لصالحنا، لكن المهم أن ندرك أهمية بناء الوعي في أفراد الأمة؛ لنعرف مواقع التطرف الخارجة عن الإطار الإسلامي، ولعل من حسن الفهم هنا أن ندرك أن الغرب يمارس صناعة التطرف، ويصدرها، وقد تكون بعض الأطراف مستهلكاً لشيء من هذا، لكن لابد أن ندرك أن الأزمة ليست في التطرف يوم يكون حالة تعرض لدى بعض الفئات، لكن يصبح الأمن العالمي مهدداً حقيقةً حينما يكون التطرف قانوناً له شرعيته كما ترسم ذلك دوائر سياسية ومؤسسات متنفذة في الأوساط الغربية قد يتجاوز تأثيرها إلى دوائر شتى، ولعل الأنموذج اليهودي هو المرشح عالمياً لهذا لو أعطيت الشعوب حرية الموقف والتعبير.

ومع هذا علينا أن نمارس نقداً واضحاً صريحاً في داخل مجتمعنا الإسلامي، ولقد شدني أن يقول الإمام أحمد، رحمه الله، عن الخوارج: «صح الحديث فيهم عن النبي ﷺ من خمسة أوجه»، فأحاديث التحذير من الخوارج صحيحة لا خلاف على صحتها عند أهل الحديث، وهي في البخاري ومسلم والسنن

والمسانيد وغيرها، وقد تلقاها العلماء بالقبول، بينما لا توجد أحاديث أخرى صحيحة في التحذير الخاص من فئة من الفئات المنحرفة عن سواء السبيل، وهذا راجع لأمور:

1- منها خطورة هذه الفتنة وامتدادها إلى آخر الزمان، وما يجري بسببها من سفك الدماء، وإزهاق الأنفس، وإرهاق المجتمعات، وترويع الآمنين، وتشويه صورة الإسلام عند أهله وعند غيرهم. وهذا مشهود منذ فتنة الخوارج الأولى إلى اليوم.

ومنها أن هذه الفئة هي ضمن فئات أهل السنة؛ فهي تحاول الانتماء لنفس القاعدة الأصلية التي تنتمي إليها الأمة في الأخذ بالكتاب والسنة، وفي العبادة والزهد، وفي الشجاعة والصدق، وفي الجدية والصرامة بأخذ الدين، وهذا يجعل صنيعهم محل شك وارتياب، ويتردد الناس أحياناً في استنكاره، ويشفعون لهم بحسن نياتهم وصدق مقاصدهم فيما يرون ويظهر لهم، وتبعات فسادهم لا تقتصر عليهم، بل تتعدى إلى غيرهم، وهم داخلون في نسيج الأمة، غير متميزين عنها في الغالب.

وثمت حلول كثيرة مقترحة، لعل من أهمها:

أولاً: تمكين العلماء الربانيين من القيام بواجبهم، وفتح الآفاق لكلمتهم إعلامياً، وتسخير إمكانيات الأمة لهذا الغرض، وربط شباب الأمة بعلمائها الموثوقين، من خلال عقد اللقاءات المفتوحة معهم، وسهولة الوصول إليهم. وليعلم

العالِم الشـرعي أنه يشـكل مرجعيـة حقيقيـة للجميـع، الحـاكم والمحكوم، على حدٍ سواء.

ثانياً: إيجاد القنوات العلمية والدعوية والإعلامية، التي من خلالها تظهر الصورة الصحيحة للإسلام، وتعريف الناس بدينهم الحق، ومناقشة الاتجاهات التي يصـاحبها نوع من الحـدة في الهـواء الطـلق، وليس وراء القضبان.. وإذا لم تعرض الدعوة الإسلامية الصحيحة الناضجة من الكتاب والسنة فإن البديل عن ذلك أمران:

الأول: شيوع المنكر الفكري والخلقي بلا نكير، وهذا يؤدي إلى التطرف.

الثاني: الدعوات المنحرفة، التي تجد آذاناً صاغية من الناس.

ثالثاً: محاولـة تنقيـة أجهـزة الإعـلام ممـا يخـالف الإسـلام، عقيـدة وأحكامـاً وأخلاقـاً، ومنـع ضـحايا الفكـر المنحـرف مـن التسـلل إليـه، ومنـع المسـاس بالـدين وأهله، وصياغته إسلامياً ليكون رافداً من روافد الدعوة.

رابعاً: ضبط مناهج التعليم وربطها بدين هذه الأمة وتاريخها وحاضرها ومستقبلها، حتى يتخرج جيل مؤمن يعرف دينه باعتدال، ويعرف عصره، ويؤدي دوره.

خامسـاً: إصـلاح الأوضـاع الشـرعية والأخلاقيـة في المجتمعـات الإسـلامية، وحمايتها من الانحلال الخلقي، ودعم وإيجاد المؤسسات الإصلاحية القائمة على حماية الأدب والأخلاق، وكما يوجد جهاز مختص لمكافحة المخدرات يجب أن يكون هناك أجهزة قوية ممكنة وذات صلاحية واسعة أيضاً في مكافحة ألوان

الجرائم التي لا يقرها الشرع.

سادساً: ضرورة العدل، وإعطاء ذوي الحقوق حقوقهم، سواء كانت الحقوق مالية أو شخصية أو سياسية أو غير ذلك، فإن المجتمعات لا يمكن أن تقوم على الظلم أبداً، والله تعالى ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة.

سابعاً: على الدعاة والعلماء الراشدين أن يكونوا واضحين وصادقين في دعوتهم، وألا يترددوا في رفض الخطأ وإدانته، أيّاً كان مصدره، بأوضح عبارة وأبين إشارة، مع الاستدلال والتوضيح وبيان سوء عواقب الانحراف، كل ذلك بلغة هادئة وأسلوب سليم، وبالحكمة والموعظة الحسنة، كما أمر الله، بعيداً عن التطرف في معالجة التطرف، أو إطلاق ألفاظ التكفير أو السب أو الاتهام بالبراءة من الدين، فالعالِم يشكل مرجعية تستوجب الاتزان، والعدل، وضبط العبارة، وسداد الحكم.

والله الهادي.